اللّغة العربية في المجتمع: واقع الاستعمال وتحدّيات التّعميم.

Arabic Language in Society: The Reality of Usage and Challenges of Generalization.

Dr. Chahtou ALi
University of Wahran 1 Ahmad bib Balha wahran ,Al-Jazair
Email: chahtouali@gmail.com

Abstract:
The Arabic language is beautiful, noble, extensive, precise, and easy to learn for those who desire to acquire it. It is among the most eloquent languages, rich in meanings. If it were not so, the Almighty would not have revealed His book in it and addressed His noble prophet and messenger with it to convey the message to the world.
However, the current reality differs from description and theoretical discourse. It comes a time when people have neglected their religious and cultural foundations, claimed progress, and disregarded the pillars of an authentic civilization that guided the world to progress and empowerment. They argue that this era cannot tolerate old things and is unsuitable for it. It is merely a call from those who fear the dominance of Muslims with the supremacy of their language.
Today, unfortunately, we live in a sensitive reality fluctuating between hope and diligent efforts for the empowerment of the Arabic language, whether at the local level in institutions and scientific clubs or even at the personal level sometimes, or at the level of well-known international bodies.
What concerns us here is the local level because we see it as the primary foundation for caring for the Arabic language. If it receives the required attention from its people, it will undoubtedly receive care and respect from others. Have we really provided this language with the attention, development, and activation it deserves, or is it just talk for consumption? Are these occasions only fleeting conversations, and are the promises made by some nothing more than false assurances, convincing themselves that they are impossible to achieve, and that the matter is only for local consumption?
Keywords: *Arabic language, usage, reality, generalization, institutions.*

مقدّمة:

اللغة بمعناها العامّ وعاء لحضارة الإنسانية، فلا شيء يمكن أن يساهم في بناء هذه الحضارة دون أن يكون للغة منه نصيب يزداد أحياناً ويتواضع حيناً، وإنّ الأمم الضنينة بحضارتها أن تُتَجاوَز وقِيَمها أن تضمحل أو

تزول لَـتَـسعى كُلّ السّعي إلى حماية لغتها والارتقاء بها حفظاً واستعمالاً وترقيةً، ونحن نرى بأنّ اللغات في عمومها رهينة باستعمالها، فمتى سادت في ميدان التعامل تجدّدت وتواصلت وامتدّت واستعصت على عوامل الضعف والزوال، ومتى بقيت في بطون الكتب ومواضيع الاحتفالات والمناسبات فإنّها حتماً إلى زوال، وذلك أنّ اللغة تحيا بالاستعمال وتموت بالإهمال.

من أجل ذلك نسعى من وراء هذه المداخلة إلى الوقوف على بعضٍ من واقع لغتنا العربية: في مجتمعنا ومؤسساتنا بل في نفوسنا وتصوّراتنا، هل هي تتبوّأ المكانة التي يُمكن أن تفضيَ إلى استيعاب حضارة مأمولة وواقع طلائعي؛ أم إنّ الأمر غير ذلك شأناً، وأننا قد لا نملك من الوسائل والتصورات، وقبل ذلك من العزم ما يُمكّن لهذه اللغة في تبوّئ المكانة المنشودة، وأنّ الكلمة الأولى والقول الفصل في هذا الشّأن هو للأمر الواقع واللغات الحالية التي تسعى إلى التمكين لنفسها بما رادت من تطور حضاري مشهود وقبل ذلك بما سعى فيه أبناؤها من التمكين لها؟

ومع كلّ هذا فإنّنا نحيّي الخيّرين من أبناء الأمّة ممّن يسعَون إلى التّمكين لأمّة القرآن بالتّمكين للغة القرآن، وذلك من منطلَق أنّ أمّة لا تسودُ إلاّ بسيادة لغتها، فلهؤلاء جميعاً نسوق التحيّة والاحترام لأنّهم يذودون عن مقوّمات الأمّة ويذُبّون عن حياضها في ظلّ تكالب عليها لم يستثنِ من ذلك شيئاً، فلغتنا أيها الإخوة مستهدفة مثل غيرها، بل لعلّها في مقدّمة ما يُرادُ لنا أن نتخلّى عنه ونزهد فيه، لأنّ لغتنا هي سبيل فهم كلام ربّنا الذي فيه سرّ سعادتنا وتمكّننا والتّمكين لحضارتنا، ولمعرفة ذلك من قِبَلِ غيرنا فإنّه يسعى إلى تزهيدنا في هذه اللغة بطريقة أو بأخرى مما سيرد ذكره.

1. واقع استعمال اللغة العربية في المجتمعات العربية والإسلامية:

إن اللّغة العربية جميلة شريفة وممتدّة واسعة ودقيقة مضبوطة، وهي إلى ذلك كلّه سهلة التّعلّم لمن يروم طلبها ميسورة الطلب لمن يسعى إلى اكتسابها برغبة وجد، وهي من أجل اللّغات قدرا وأكثرها إحاطة بالمعاني، ولو لم تكن كذلك ما كان الباري جلّ وعلا قد أنزل بها كتابه وخاطب بها نبيّه الأشرف ورسوله المصطفى ليبلغ بها الرّسالة للعالمين.

ولكنّ الواقع الآن غير الوصف والكلام النظري غير التطبيق، فقد أتى على النّاس زمان زهدوا في مقوماتهم الدينية والحضارية بدعوى التقدم وأهملوا دعائم حضارة أصيلة رادت العالم وقادته أشواطا إلى التقدم والتمكين، بدعوى أن هذا الزمان لا يحتمل القديم ولا يصلح له، وإن هي إلا دعوى من يخشى سيادة المسلمين بسيادة لغتهم[1] .

نعيش اليوم مع شديد الأسف واقعا حساسا متأرجحا بين أمل وسعي حثيث للتّمكين للّغة العربية سواء في ذلك على المستوى المحلّي في المؤسّسات والنّوادي العلمية وحتّى على المستوى الشّخصي أحيانا أو على مستوى الهيئات العالمية المعروفة .

والذي يهمّنا هنا هو المستوى المحلّي لأنّنا نراه الأساس الأوّل في العناية بالعربية، وذلك أنّها إذا لقيت العناية المطلوبة من أهلها فإنّها ستجد حتما العناية والاحترام من غير أهلها، فهل فعلا قد قدمنا لهذه اللغة ماهي جديرة به من الاهتمام والتطوير والتفعيل؛ أم إن الأمر لا يعدو أن يكون كلاما للاستهلاك فقط، وإن هي إلا مناسبات يتحدث فيها الناس حديثا عابرا، ويعدون بعضهم وغيرهم وعودا كاذبة يقرون في أنفسهم بأنها مستحيلة التحقيق، وأن الأمر للاستهلاك المحلي لا غير؟

وإنّا لا ندري ما الذي حمل بعض الجاهلين على التّحامل على هذه اللغة فاتّهموها بالتخلف والضّعف حتى سكنت نفوسَهم فكرة عجز هذه اللّغة عن مواكبة الأحداث ومجاراة التطور الحاصل في حياة الناس، في حين أنّ لغات العالم – بزعمهم- تتطوّر مشرقاً ومغرباً، أَوَلَمْ يطّلع هؤلاء على صفحات التاريخ التي تنبئهم بأنّ هذه اللغة المدعى عليها قد بلغت الآفاق وسادت لغات العالم يوم كان أهلها أشدّ الناس حرصاً عليها؟

يتحدّث مصطفى صادق الرافعي (1880 م – 1937 م) عن أهمّيّة اللّغة العربية فيقول إنّ:" من أعجب ما يحقّق الإعجاز، أنّ معاني هذا القرآن الكريم، لو ألبست ألفاظا أخرى من نفس العربية، ما جاءت من نمطها وسمتها والإبلاغ عن ذات المعنى إلّا في حكم التّرجمة، ولو تولّى ذلك أبلغ بلغائها، ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا، فلقد ضاقت اللّغة عنده على سعتها، حتّى ليس فيها لمعانيه غير ألفاظه بأعيانها وتركيبها"، فكيف إذن يأتي من يطعنُ في قدرة هذه اللغة على حمل المعاني واستيعابها وتبليغها؟

يتقارَبُ نصيب استعمال اللغة العربية في المجتمعات العربية على اختلافها، وما يظهر بينها من تفاوت لا يرقى إلى أن يجعل من هذا الاستعمال يتصنّفُ ضمن مراتب، ونحن هنا سنحاولُ أن نُقدّم عيّنة من ذلك ممثّلةً في المجتمع الجزائري، ونحسبُ أنّ ما يُقال عنه قدْ يُقالُ عن أغلبية المجتمعات العربية، ومن كان حالةً خاصّة من هذه المجتمعات فإنّنا نخشى عليه أن ينضمّ إلى المجموع فيكون الأمر ثالثة الأثافي كما يُقال.

وقد يتساءلُ بعضنا: لِمَ هذه التّشاؤم في التّصوّر والسّوداوية في المنظور، فنقول بأنّ الأمر واقعٌ معيش فعلاً وليس ادّعاءً بالباطِل، وأن نذكر الواقع بما فيه من سلبيات ونقائص أفضل بكثير – من منظورنا على الأقل- من أن نطمئنّ إلى مسارنا ونرتاح إلى هذا الواقع المتردّي الذي إنْ واصلنا فيه فإنّنا حتماً سنكون ممن يُساهم في ترسيخه وندعو إليه بدل أن يُحارِبَه ويُساهم في تغييره.

ساهم الاستعمار الفرنسي في الجزائر (وفي كثير من البلاد العربية الأخرى) في ترسيخ واقعي لغوي سلبي تظهر آثاره في عدم وعي الجزائري بمقوّمات وجوده وأنّها جزء مهم منه، فصرنا " لا نعرف من تاريخنا سوى سلبياته إذ لم نستطِع أن نُهيمن على مجاريه وأن نوجّهها بما يُقدّمنا ويرتقي بنا لأنّ مدّ الأحداث وجزرها؛ فيما بيننا ونحن من أرومة واحدة وفيما بيننا وبين جيراننا وهم إخواننا وبنو جلدتنا وفيما بيننا وبين بلدان البحر المتوسّط والعالم؛ لم تسمح لنا بذلك الاستقرار السياسي الذي يتيح للأمم أن تنتظم"[2]، وهو شأن لم يزل يراوح مكانه في الثقافة الجزائرية بالتشويش عليها وفي نفوس الجزائريين بتغييبهم عن واقعهم اللغوي.

يقف المتأمل في زماننا هذا على واقعٍ مؤسف للغة العربية، ففي وقتٍ كان يُفترَض أن نسعى فيه إلى العناية بهذه اللغة والعمل على تطويرِها وزيادة محصول النشء منها؛ إلاّ أنّنا نرى بأنّ الأمر على العكس من ذلك تماماً، فقد طاف علينا طائف من الشيطان فباتت لغتنا تشكو منّا مثلما كانت تشكو من الأغراب على عهد الاستعمار، وإذا كان هذا الاستعمار قد ولّى أدباره؛ فإنّ صنيعه باللغة العربية لم تزل آثاره باقيةً إلى اليوم.

لقد انحسرَ استعمال اللغة العربية وانحصرَ تداولها ضمن دوائر ضيّقة هي غالباً المؤسسات الرسمية للدّولة والمناسبات الوطنية أو الدّينية، وتسرّبت إليها في أثناء ذلك وربّما قبله وبعده أيضاً لهجات عامّية هي مسخٌ من المسوخ اللغوية فلا هي فرنسية كاملة ولا هي عربية قُحّة ولا هي إسبانية سليمة بل خلقٌ غريب لا يكادُ يوصفُ بأيِّ صفة، ولعلّ من نفخوا فيه صفة القدرة على التواصل وتلبية الحاجة اليومية للمجتمع كانوا يتقصّدون إدراج بعض الملفوظات العربية فيه، فيكون بين بين، فلا يُفكّرُ أحدٌ في التغيير ويرتاح للأمر الواقع، وهذا كلّه حاصل في ظلّ تراجع التحصيل العلمي للناشئة وتردّي المردود اللغوي للمتعلّمين.

2. **أسباب اضطراب استعمال اللّغة العربية في المجتمع**: لقد نشأ هذا الواقع في نظرنا نتيجة لمجموعة من الأسباب نذكر هنا أهمّها:

أ- **هجر الرّعية للغة الوطنية**: فقد أصاب المواطن الجزائري (والعربي عموماً) ضعفٌ في لغته الأمّ فأصبح لا يعي بأنّ العربية هي لغته الوطنية ومن البرّ بهذه اللغة أن يتعهّدها بالاستعمال والتوظيف، وأنّها جزء لا يتجزّأ من شخصيّته ومقوّمات وطنه، ولعلّ من أهمّ ما أدّى إلى هذا الخلل في التّصوّر ما يلي:

- ضعف أو انعدام الوعي بمقوّمات الهويّة الوطنية وضعف الشّعور بالانتماء العربي من حيث اعتبارُ اللّغة جامعاً ومؤسساً لوحدة الأمّة، ونحن نحسب أنّ ذلك ليس وليد اليوم بل هو نتيجة لتراكمات سلبية أدّت إلى ضعف الإيمان بالانتماء العربي.

- يُشكّل المحيط الأسري (الوالدان والإخوة على وجه الخصوص) فاعلاً أساسياً في توجيه سلوك الفرد وتبنّي قيم معيّنة ومنها قيمة اللغة باعتبارها ركيزة أساسية في بناء الشخصية ودعامة من دعامات الانتماء الوطني والعربي والإسلامي، فكثير من الأولياء أضحَوا يسعون إلى تكوين أبنائهم تكويناً أجنبياً ظنًّا منهم أنّ ذلك ضمانٌ لتفوّقهم الدراسي، وهو أمرٌ ظاهره صحيح ولكنّ كثيراً منهم يسعون في ذلك على حساب اللغة الوطنية العربية، وهو أمرٌ يساهم بشكل كبير في عدم التمكين لهذه اللغة في نفوس الناشئين، فإذا شبّ هؤلاء وحاولوا إصلاح الأمر مع أبنائهم لم يستطيعوا ذلك ولو أرادوه لأنّ فاقِدَ الشيء لا يُعطيه، ويستمر الأمر في التّفاقُم مع مرور الأجيال[3].

ب- حديث النّاس فيما بينهم بمرادفات غير عربية وتبسيط غير المفهوم بلغة ثانية: يجد كثير من المعلّمين اليوم صعوبة في شرح المعاني للطفل الذي لا يتحكّم في المرادفات والأضداد؛ فيلجؤون إلى التّمثيل والتّصوير لتقريب المعنى في أحسن الأحوال، بل إننا نلفي المعلم في كثير من الأحيان يشرح المبهم من المعاني والألفاظ بكلمات مأخوذة من الدارجة أو من اللّغات الأجنبية على اختلافها، وهذا القصور سيولّد بعض العيوب للمتعلّم في كِبَره، لأنّه سيتولد لديه شعور حينها بأنّ هذه اللغة ذات مفردات ومعاني صعبة، وأنّ السهولة إنّما تكمن في غيرها من اللغات ممّا يسهل فهمه، بل إنّ اللهجة العامّية قد تكون أسهل وأوضح، فيسعى إلى التماس المعاني في هذه اللغات واللهجات ويزهد في لغته الوطنية التي هي أقدر اللغات على استيعاب المعاني كما مرّ بنا، ولعلّ من الأسباب التي أدّت إلى هذا الواقع :

- أنّ المتعلّم الذي لم ينهل من معين اللّغة العربية الصحيحة في الصّغر سيُفكّر في أثر غياب هذا التّحكّم على تحصيله العلمي فلا يكاد يشعر به في الفترات الأولى من التّعليم، فهي تعتمد أساسا على الحفظ في المواد الأدبية، وعلى التحكّم التّقني في المواد العلمية كما أنّه متيقّن أنّ الدراسة الجامعية ستكون باللّغات الأجنبية في كثير من التخصّصات المرموقة، فيرتاح من عناء القلق بشأن تأثير هذا النقص على مساره الدراسي أو حتّى مستقبله المهني المنشود، وهو أمر قد ترسّخ في كثير من الأفهام وهو ينذر بسلبية كبيرة على امتداد اللغة الوطنية بين الناطقين بها.

وهنا يجب علينا الوقوف وقفة المتأمّل لتدهور التحصيل العلمي لدى المتعلمين، وعدم فهمهم لما يدرسونه رغم أنّه يدرّس لهم بلغتهم العربية الفصحى، وتجد المتعلم بالمقابل يسهل عليه الفهم حين تستعمل الكلمات الدارجة للشرح أو حتى استعمال بعض اللغات الأجنبية، وهنا يجب أن ندقّ ناقوس الخطر إذ كيف يعقل ألاّ يتمكّن المتعلم من لغة يدرسها يوميا ويدرس بها جميع المواد التعلمية؟ والأمر هنا عائد في الأصل إلى المناهج التعليمية التي قد لا تعطي في بعض الأحيان الأهمّية اللازمة للغة ودراستها بجعلها مادّة من مواد البرامج الدراسية كغيرها من حيث الأهمّيّةُ والأصل أنّ لها أهمّية خاصة، لأنّها أهلٌ لذلك فعلاً ثمّ لأنّها تحتاج مثل هذا الاهتمام حتّى نخرج بلغتنا من حال الجمود الذي أصابها وأصابنا.

هذا غيض من فيض مما يُمكن أن يُقال عن واقعنا اللغوي في المؤسسات التعليمية، ولأنّ المقام لا يتسع هنا لتسليط الضوء على عدّة أمثلة من الواقع المعيش مع المتعلّمين، ولكنّه كاف لتسليط الضّوء على مسألة الخلل الموجود في العملية التّعليمية التّعلمية باللّغة العربية، وكاف بأن نوضّح الصّعوبات التي يواجهها المتعلّم والمعلّم لتحسين التّحصيل العلمي الذي يتراجع بشكل ملحوظ.

لكن كيف نشأت هذه الهوة بين الناطقين بالعربية وبين لغتهم الأمّ؟

نحن نعلم أنّ ذلك لم يكن دُفعةً واحدة وإنّما تمّ بالتدريج شيئا فشيئاً، كما أنّه لم يكن وليد أسباب داخلية ذاتية فقط؛ بل إنّ للعامل الخارجي دوراً واضحاً في ذلك.

ج – عدم استعمال العربية في الحياة العامة : تظافرت عوامل عدّة أدّت إلى تردّي المردود اللّغوي في الحياة العامّة، ممّا يوحي بأنّ اللّغة العربية تعيش حالة من الغربة بين النّاطقين بها، ولعلّ من أهمّ الأسباب التي أفضت إلى هذه الهوة ما يلي:

- غياب اللّغة العربية في المعاملات وفي أسماء المنتوجات ولافتات المحلّات والفواتير والتعاملات البنكية وفي كثير من مظاهر التعاملات اليومية الاجتماعية والاقتصادية بل تعدّى هذا الغياب إلى ما هو أقرب إلى التّغييب؛ فالبرامج التّلفزيونية الناطقة بالفصحى شحيحة شحّ الماء في الصحراء ناهيك عن استعمال لغة هجينة بين الدّارجة والفرنسية أو الإنجليزية في كثير من البرامج ذات البثّ الواسع، وتأثير ذلك على تأصيل اللّغة العربية بوصفها لغة للتّواصل بين الباث والمتلقّي، وهنا لا يتفطّن المتلقّي غالباً إلى طبيعة اللغة التي يتم التواصل بها، فيعتقد خطأً أنّها هي اللغة الأفضل للتّوصيل فيتبنّاها لدى تفاعله مع هذه البرامج أو لدى تعامله مع غيره نتيجةً لتأثّره بها.

- إصرار الشّركات التجارية على اختلافها على تبنّي كتابة العامّية بالحرف اللّاتيني حتّى خُيِّل للبعض أنّها طريقة مشروعة أو أنّها فصيحة، حيث لا يميّز كثير من النّاس بين مؤسّسات الدّولة وهذه الشركات، وبما أنّ تعامله الأكبر إنّما يكون مع هذه الشركات باقتنائه لمنتجاتها فإنّه يتأثّر مجدّداً بما تُقدّمه له دون أن يتفطّن غالباً للغة التي تمّ بها التعامل معتقداً بأنّها اللغة المثلى التي يجب عليه أن يتواصل بها، وقد يكون الأمرُ في ذلك مقصوداً، إذْ يُمكن لهذه الشركات أن تتواصل مع المتعاملين المفترضين بلغة عربية فصيحة وبإمكانهم فهم هذه اللغة لأنّها غير مقصودة في ذاتها فهي مبسّطة ولكنّها فصيحة في الحدّ الأدنى، وبمساعدة الصّور المرافقة لها يمكن فهمها بسهولة ويُسر، ولكنّ الأمر كما ذكرْنا قد يكون مقصوداً بأن تسعى هذه الشركات سعياً مقصوداً إلى تكريس العامّية لحاجةٍ في نفوس أصحابها لم نطّلع عليها، ولكنّ الذي نعلمه علم اليقين أنّ توجيه هذه التعاملات وفق المنهج الذي يخدمُ لغتنا العربية سيساهم بشكل فعّال في تكريسها واقعاً معيشاً.
- غزو الوسائل الحديثة للتّواصل بمختلف أنواعها وما نجم عنها من ظواهر دخيلة وخطيرة يجب الوقوف عندها، وهي تحصيل حاصل لتغييب اللّغة العربية نطقا وسمعا، ونقصد بذلك تغييب الحرف العربي في الكتابة، واستعمال الحرف اللّاتيني للتّعبير عن الكلمات الدارجة لتنشأ لغة موازية للغة العربية تعتمد في التّواصل عبر الهواتف والحواسيب في موجة خطيرة تجتاح أساليب الخطاب والحوار بين الأفراد، فنادرا ما صرنا نتلقّى رسالة نصّية أو إلكترونية مكتوبة بلغة عربية سليمة غير مشوهة المعاني أو الحروف.

وكلّ هذه الأسباب تتفاوت في نسبة تأثيرها على تراجع قوّة اللّغة العربية عند المتعلّمين، ولكنّها مجتمعة كانت أو منفصلة خلقت هذا الخلل الملموس، ثمّ إنّ هذا الخلل الموجود لن يكون له تأثير على جودة التّعليم فحسب بل هو ينخر أساسا مهمّا من أسس التعليم باللّغة العربية، لأنّ المتعلّم لا يتحصّل على نتائج مرضية وإن تحصلّ عليها فهو في غالب الأحيان لا يجيد كتابة فقرة أو طلب خطي أو تقرير مهني أو حتى إنجاز سيرة ذاتية متقنة باللّغة العربية، وقد يعني هذا أنّ مكتسباته اللّغوية لا تتعدّى المقرّر الدراسي الذي تناوله والذي اعتمد فيه على الحفظ بشكل كبير، وهنا نكون قد تحصّلنا على متعلّم لا يتعلّم ليعلّم بل يتعلّم لينتقل إلى المستوى الأعلى فحسب بغضّ النظر عن النقائص التي لديه .

والأخطر من ذلك كلّه، هو احتمالية التّدريس باللّغات الأجنبية بما أنّ المتعلّم أصبح يقبل عليها ويكون ذلك بحجة أنّ المتعلّم يواكب عجلة التقدّم، وأنّه سيحضّر جيدا لمرحلة الدراسة الجامعية من حيث التمكّن في اللّغات الأجنبية، ونحسب أن تلك هي الضربة القاضية للغة العربية ومقومات الهوية الوطنية[4].

من هذا المنطلق، وجب اتخاذ إجراءات مستعجلة (أفرادا وجماعات مشاركة) في الفعل التّربوي من جهة وقادة العملية التّعليمية التعلّمية من جهة أخرى، فما هي البدائل النّوعية والطرائق الناجعة التي تجعل كلّا من المتعلّم والمعلّم يستعيد لغته ونفسه أيضا؟

3. السّبل النّاجحة والاختيارات النّوعية للرّقي باللّغة العربية:

تتفق الآراء جميعاً على أن صيانة اللّغة الأمّ في المجتمع الجزائري أمرٌ ضروري فهي الحافظ للفتى والفتاة من الانحراف؛ إذ إنّ الشّخص الذي لا يستطيع أن يحافظ على لغته لا يمكن أن يؤتمن على مصالح الوطن لأنّ هذه اللغة جزء لا يتجزّأ من الهوية الوطنية، ومن ضيّعها فهو لغيرها أضيع، ولابدّ من المحافظة على اللّغة العربية والعمل على نشرها بين الجزائريين بواسطة التّعليم والتّربية والتّأليف والتّحقيق وغير ذلك، لأنّه هو الذي يحفظ الشّخصية الجزائرية ذات الطّابع العربي الإسلامي من عوامل الانهيار أو الفرنسة أو الميوعة، ويمكن تدارك هذا القصور الكبير في التمكّن من اللّغة العربية، ومعالجة النقائص من خلال الحلول الآتية:

- إدراج المدارس القرآنية ضمن التّعليم التحضيري أو ما قبل التحضيري وتفعيل دور الحضانة في تلقين اللّغة العربية للطفل، كما يمكن تحفيز المتعلّمين وتنظيم مسابقات وجوائز للمتفوّقين في الفصاحة والبلاغة والبيان، إنّ من شأن هذه التحفيزات أن تُبيّن للمتعلّمين وأوليائهم مدى أهمّية اللغة وأنّها مسألة وجودية، وعند ذلك يُدرك المتعلّم مهما بلغ وعيه أنّه بصدد ظاهرة ذات أهمّية في حياته وليست مجرّد منافسة علمية أو دراسية، وهذا الوعي – مع الأسف- هو الذي نفتقده في الأجيال.

إنّ مظاهر الاحتفال باللغة العربية والاحتفاء بالنّجباء من أهلها من أبنائنا هو أمرٌ ضروري لما ينتج عنه من انتباه لأهمّيّة هذه اللغة، وهي الاحتفالات التي تقدح شرارة التفكير في أهمّية هذه الظاهرة، ونحن لا نرى بأنّ هذا الاحتفاء والاحتفال مقصود لذاته ولكنّه وسيلة للفت الأنظار وشدّ الانتباه نحو هذه اللغة عند عموم المجتمع، لأنّ الواقع يشير إلى أنّ العامّة لا يولون أهمّية للغة التي بها يتواصلون، ولا يعون في الغالب مدى الخطورة والأهمّية التي تنطوي عليها هذه المسألة.

إنّنا في أمس الحاجة إلى الترويج لهذه الأفكار على بساطتها لأنّ معاول الهدم لا تهدأ، وهي وإن فترت حيناً لا تلبث تتجدّد في أثواب وهياكل جديدة مستغلّة كلّ ظرف ومستعينة بكلّ جديد، والعامّة منّا لا يُدركون واقعهم ولا يسعون إلى الحفاظ على مقوّماتهم، وهنا يقع الواجب على عاتقنا نحن المتخصصين في مسائل اللغة وعلم الاجتماع للمسارعة إلى تكييف طرق التوعية بأهمّية المسألة ابتداءً ثمّ بتيسير سُبُل استيعاب اللغة واستعمالها، وهو أمرٌ ممكن وميسور لمن يسعى فيه بجدٍ وتبصّر.

قد نعلم أنّ الغالبية الغالبة من أفراد المجتمع (قد لا نبالغ إذا قلنا إنّ ذلك يبلغ تسعاً وتسعين من المئة) قد تدرجوا في مراحل الدراسة الأولى، فهم إذن قد تعلموا شيئاً من العربية قراءة وإنشاءً، ويحذقون كثيراً من قواعدها وطرق الكتابة بها، وهو أمر مشجّعٌ على استمرارية تنمية قدراتهم في فهمها واستيعابها والتواصل بها إذا تظافرت الجهود في ذلك، ونحن هنا لا نُحمّل مؤسسات التعليم فوق طاقتها، لأنّ الأمر يتجاوز حتماً قدرتها على التمكين الكامل للغة في نفوس الناشئة، وإنّما الأمر هنا يخص أيضاً مختلف مؤسسات الدولة في حماية الرّصيد اللغوي للعامّة والعمل على زيادته بطريقةٍ ما، وإذا كانت النيّة صالحةً في ذلك فإنّ الطريقة حتماً ستوجَد بالاستعانة بالمختصّين في هذا الشأن.

- تنبيه الآباء إلى الخطر الذي يشكّله تركيزهم على اللّغات الأجنبية، وهنا يجب أن تتظافر جهود الإعلام والجمعيات الثقافية لتنظيم حملات توعوية وتوضيح الصورة للأولياء بشكل مبسّط، كما يجدر بالنشاطات المدرسية الصفية واللاصفية اعتماد اللّغة العربية وتبسيطها بالنسبة للمتعلّمين كي لا ينفروا منها.

إنّ اللغات الأجنبية قد أصبحت تنافس اللغة العربية بعدّ هذه اللغات ملمحاً من ملامح الثّقافة في المجتمعات العربية ووسيلة فضلى للتواصل اليومي، وهو شأن يعود بالسّلب على اللغة الوطنية، فهل عجزت هذه اللغة على غناها وامتدادها عن أن تكون وسيلة صالحة للتواصل اليومي؟ أم إنّها لا تُمثّل مظهراً من مظاهر الحضارة والتفوّق؟ لا نعتقد أن شيئاً من ذلك يمكن أن يكون صحيحاً ولو بنسبة ضئيلة، فقد انتشرت هذه اللغة وامتدّت أجنحتها في ربوع الوطن العربي والإسلامي فكانت وسيلة التّخاطب اليومي والرّسمي، بل كانت لغة العلوم على اختلافها يوم كان لأهلها غيرة عليها وحرصاً على التمكين لها[5].

أضحى استعمال اللغات الأجنبية أمراً ضرورياً في مجتمع دولي شديد الترابط متقارب في الزمان والمكان بسبب انتشار التكنولوجيا الحديثة، ولكن يجب التفريق هنا بين عدّ هذه اللغة الأجنبية وسيلة للتواصل عند الحاجة وبين النظر إليها على أنّها من الثقافة المتأصّلة في المجتمع المعبّرة عن الشخصية والهُويّة الوطنية، إنّ هذه الازدواجية الثقافية هي أمرٌ غير مقبول لمن يروم تأصيل ثقافته والتّمكين للغته، وقد أثبت الواقع والتّجارب أنّ هذه الثقافة الأجنبية سرعان ما تزيح ما سواها لتتبوّأ المكانة العليا في المجتمع ملغيةً بذلك كثيراً من الثّوابت التي كان يُعَوَّلُ عليها في بناء الهُويّة الوطنية، فينشأ جيل مضطرب لا يدري إلى أيّ جهة ينتمي[6].

- تخصيص حيّز معتبر من الشبكة الإعلامية للّغة العربية واعتمادها بشكل أساس في الإعلام المصوّر والمسموع في ظلّ تراجع الإقبال على المطالعة بصفة عامة وقراءة الجرائد بصفة خاصة، وتبقى ساحات

التواصل الحديث فضاء مفتوحا للتوعية وسن سنن ومبادرات من شأنها إثراء اللّغة العربية عند المتعلّمين والنهوض بمستواهم.

كُنّا نرى إلى عهدٍ قريب بعض البرامج الإعلامية التي تحتفي باللغة العربية وتسعى إلى ترسيخها، وإذا كان ذلك يهدف إلى محو آثار الاستعمار الذي ترك أكثر البلدان العربية تشكو من ضعف المستوى في تلقّي اللغة العربية؛ فإنّ الأمر مازال مُلِحًّا في ذلك، ولعلّنا اليوم أحوج ما نكون إلى هذه البرامج الإعلامية التعليمية لأنّها تُعَدُّ تغذيةً راجعةً للناشئة تُذكّرهم بلغتهم وتسعى إلى تسير سُبُل تلقّيها والاستفادة منها، إنّنا اليوم لا نشكو ضعف مستوى الناشئة في تلقّي اللغة العربية بقدر ما نشكو مستوى الوعي بأهمّية هذه اللغة واعتبارها أحد مكوّنات الشخصية والهُويّة العربية، وهنا يبرز دور الإعلام جلياً في ذلك.

- تدريس اللّغة العربية بنيّة أنّها أداة تواصل، ويرى أحد الباحثين أنّه لابدّ أن يكون من بين الأهداف الاهتمام بكفاءة الاتّصال، والاتّصال في حد ذاته مهارة شديدة التعقيد؛ حيث تتضمن أكثر من مجرد إتقان تراكيب لغوية، فينبغي مراعاة أن يكون المنطوق ملائما لمستويات عدّة منها هدف المتحدّث، والعلاقة بين المتحدّث والمتلقّي، والموقف، والموضوع، والسياق اللّغوي، ثمّ إنّ تدريس اللّغة العربية بنيّة أنّها أداة تواصل تستهدف إكساب المتعلّمين المهارات اللّغوية، وتمكّنهم من استخدام القواعد اللّغوية بغية أداء وظائف اتّصالية معيّنة في مواقف معيّنة، كما أنّه يجعل المحادثة بينهم باللّغة العربية شفويا وبطلاقة.

إنّ المتعلّم للغة العربية اليوم يرى بأنّ هذه اللغة هي هدف في حدّ ذاتها باعتبارها مادّة من موادّ البرنامج الدراسي لا باعتبارها أداة للتواصل في الفصل الدراسي وفي غيره، ومن هنا فإنّ وعيه بها واستيعابه لها يكون ظرفياً طارئاً لا يلبث أن يضعف أو يزول بتقادم الزّمن، وهنا وجب العمل على تعديل هذه الفكرة وتغيير هذا المفهوم للغة، وذلك بترسيخ فكرة أنّ هذه اللغة هي في الأصل للتواصل اليومي أيضاً، وهو أمر – إذا تمّ على الوجه الصحيح– من شأنه أن يرفع مستوى الاستيعاب والاهتمام بهذه اللغة بعدّها جزءاً من الحياة اليومية ومن مكوّنات الشّخصية[7].

- تنظيم ندوات وطنية يلتقي فيها جميع الفاعلين في هذا المجال للخروج بخطة عمل ممنهجة وفق أسس علمية، ودراسات ميدانية للرقيّ بالفعل التربوي؛ وتحسين جودة التعليم في وقت لا اعتبار فيه إلّا للجودة والإبداع، ومن شأن هذه النّدوات أن تُقدّم لنا الحلول الفاعلة لتدارك النّقص الملاحظ في التمكين للغة العربية.

إنّ هذه اللقاءات العلمية (ومنها هذا الملتقى العلمي الواعد) تسعى إلى إيجاد الطرق الملائمة لتطبيق مختلف الآراء التي تُقدّم لفائدة اللغة العربية، لأنّ كثيراً منّا يرى بأهمّية هذه اللغة وبوجوب تعميمها ولكنّ العقبة التي تُساوِرُ سبيل من يسعى إلى ذلك هي صعوبة تطبيق هذه الآراء والنظريات، وهو يقع الأمرُ على عاتق المختصّين في هذا الشأن من أهل العربية وعلم النفس وعلوم التربية، فهم من يكون قميناً بإيجاد الحلول المناسبة في ضوء الإمكانيات المتاحة، ولا سبيل بعد ذلك للاحتجاج بصعوبة التّطبيق لأنّ الحلول المقترحة غالباً ما تكون في ضوء المتاح من الهياكل والمادّيات كما ذكرْنا.

الجمع بين الجانب النظري والجانب التطبيقي للّغة العربية حتّى عند ذكر الشّواهد لتطبيق قاعدة نحوية أو بلاغية أو أدبية أو حتّى أخلاقية، ولابدّ من العناية الخاصّة لعلم النحو لأنّه كما قيل: " من أسمى العلوم قدرا، وأنفعها أثرا، به تثقّف أودّ اللّسان، وسلس عنان البيان، وقيمة المرء فيما تحت طيّ لسانه لا طيلسانه"[8].

ثمّ نقول، أوليس من الخجل على بعض القائمين على مخابر اللّغة العربية إشرافا وتتبّعا للأحداث وتنوّع المصطلح والحديث إيجاد ما يصلح ويقارب كلّ مستجدّ من تشكّل حروفها الغنيّة والممتدّة باشتقاقاتها اللّامتناهية؟ إنّ هؤلاء قد وقفوا على ثغر من ثغور الأمّة، وهو ثغر لا يقل أهمّية عن ثغور خطّ النار، ففيه لغة الأمّة والقرآن، وصونها والعمل على تطويرها بما يلائم الحاضر هو أمر فيه من المعروف الشيء الكثير.

تدفع إلينا الحياة المتجددة يومياً بمئات المصطلحات المستحدثة التي أصبحت تُعجِزنا عن إيجاد المقابلات العربية الفصيحة لها، وهو شأن لا يتعلّق البتّة باللغة العربية، فهي لغة موسوعية ممتدّة واسعة، وإنّما الأمر يتعلّقُ بنا نحنُ الذين انتسبنا إليها دون أن نوفّيَها حقّها بكسلنا وتهاوننا وتخاذلنا جميعاً في النّبش في هذه اللغة واكتشاف دفائنها التي تحوي حتما أضعاف ما نبحث عنه، إنّ نظراءنا في بقية اللغات لا تأخذهم غفلة في خدمة لغاتهم بحثاً وتنقيباً واستكشافاً وتطويراً لأنّهم على وعيٍ كامل بخطورة الظاهرة اللغوية ومدى مساهمتها في بناء الأوطان والحفاظ عليها، إنّ لغةً لا تتجدّد مع تجدّد الحياة ولا تبحث عن سبُل الاستمرارية هي لغة محكومٌ عليها بالتّعثّر والتقوقع والفشل، ولن يكون الضّررُ عليها حينئذٍ في نفسها بل إنّه سيكون خطراً وجودياً على المنتسبين إليها.

حاشا أن يكون لهذه اللّغة يوما عثرة أو وقفة عجز تجاه أيّ مستجدّ لغوي لساني خطابي، أو تسمية مُبتكر من الموجودات، إنّما اللوم كل اللوم علينا نحن المنتسبين إليها والقائمين على حماية حسنها، المقصّرين في تتبّع كل تطوّر ومبتكر لدى غيرها، وفي هذا المقام وجب على الموكّلين مهامّها حسن الدّراية والتّدبير وبالغ

الإحاطة والنّظر في كلّ لسان أعجمي سعياً إلى مواكبة المستجدّ، وإيجاد المقابِلات العربية المناسبة لكلّ جديد.

من هنا نرفع عقيرتنا بوجوب التنبّه لهذا القصور الذي يعتري مؤسساتنا المخوّلة لخدمة لغتنا العربية، وهو تنبيه لا نكاد نستثني منه أحداً، فعلى اعترافنا بالجهود التي تبذُلُها المجامع اللغوية في خدمة العربية وتثميننا لما تقوم به من دور فاعل في هذا الشّأن؛ إلاّ أنّ ذلك غير كافٍ من منظورنا على الأقل، لأنّ الجُهْدَ المبذول قد لا يساوي الخطر الذي يُساورُ اللغة في مسيرتها للتمكّن في نفوسنا، ولا بدّ –إذن– من مضاعفة الجهود وتعديل سُبُل تلقّي هذه اللغة وتنويعها بما يتلاءم مع المستجدّ من الأمور.

حين يتوارى أهل الاختصاص عمّا أنيط بهم تغيب الدّقّة، وبالتّالي تتداخل المفاهيم وتختلط الرؤى ويفقد المصطلح وظيفته ويترامى في أحضان سوء الاستخدام، وطفرة الاستهلاك الآني وتعدّد الاستعمال وخطأ الفهم، في حين وأمام هذا التّنوع في استخدام المصطلح بالنّظر إلى بالغ أهمّيّته الدّلالية في تيسير التواصل اليومي وجب الحرص على التّدقيق في صياغتها والتّمعّن في انتقاء اللّفظ المناسب وتجنّب الخلط في الاختيار من أجل أمن اللّبس لدى الاستعمال، لأنّ تداخل المفاهيم أو توسّعها يؤدّي حتما إلى أن تصبح فضفاضة لا تنضبط بدلالة معيّنة وبالتّالي ضياع قيمتها اللغوية.

لقد ضلّت اللّغة العربية ذات قدر واقتدار وشدّ لحبال التّواصل بين الناطقين بها في أصقاع العالم، وهي لا تزال معيناً ثرًّا لترجمة المصطلح الأعجمي وتقديم المقابل الأمثل له، ومرافقته إلى حسن دلالاته، ومع امتداد الزّمان وتغيّر المكان نجد مظاهر جديدة طرأت على استعمال هذه اللّغة مما ساهم في خفوت جذوة استعمالها في بعض أقطارنا العربية، والأسباب في ذلك متعدّدة ذكرنا بعضها وغضضنا النّظر عن بعضها الآخر إمّا لشيوعه ومعرفة الناس له، وإمّا لأنّه لا يرقى إلى مستوى ما ذكرنا.

خاتمة:

وجُملة القول فيما ذكرْنا أنّ لغتنا بخير ما دُمنا في خدمتها، نسعى إلى جعلها قريبة من المتلقّي العادي سهلة التناول بسيطة الاستعمال، فإذا أصبحت كذلك زاد انتشارها وعمّ استعمالها وسهُلَ تداولها، وتنبّه من كان غافلاً من أهلها إلى مدى أهمّيّتها فسعى في خدمتها باستعمالها وتوظيفها في الحياة اليومية، ولذلك قيل إنّ اللغة تحيا بالاستعمال وتموت بالإهمال، وهو قول صحيح، فلغتنا متى استعمِلت في يومياتنا ازداد فهم الناس لها وحرصاً على الاستزادة منها والبحث فيها.

ولا يكون ذلك إلاّ بتظافر الجهود، جهود المجامع والهيئات اللغوية والعلمية وجهود ذوي الاختصاص في هذا الشّأن والأمر ميسور متاح لمن يسّره الله عليه، ولنا في ذلك نماذج رائعة ورائدة أفراداً وجماعات، وما دامت الجهود متواصلة والمساعي قائمة فإنّ هذا الأمر سينتهي بخير حتماً لأنّ المسألة ليست بذلك السّوء الذي قد يتصوّره بعضنا، ولكن لا بُدّ أن نؤكّد من جهةٍ أخرى ومن جديد أنّ المسألة هنا وجودية وليست هامشية واللغة من حيث هي لغة مكوّنٌ أساسٌ من شخصيّتنا وثابت من ثوابت الأمّة لا يسعى إلى خدمتها إلاّ من أوتي حظًّا من وطنية ودين.

وعَوْداً على بدء فإنّ مثل هذه التظاهرات التي تُعلي من شأن اللغة وتسعى إلى النّظر فيها لَهي قمينةٌ بالتثمين والتشجيع والإشادة والتّحفيز لأنّها دليل خِرّيت على سعي أهل اللغة إلى البحث فيها والقلق على مستقبلها والذّود عن حياضها، وهو قلق محمود وسعيٌ مشكور لنُبْلِ هدفه وضرورة قيامه، فهو يرومُ الدّفاع عن لغةٍ سادت العالم يوماً ورادت البشرية في دنياها ودينها، ولغة هذا وصفُها لا ينبغي أن نغفل عن واقعها، بل الواجب كلّ الواجب أن نسارعَ إلى خِدمتها لأنّها جزء لا يتجزّأ من الوطنية والشّخصية والدّين.

الهوامش

[1] – ينظر: عبد الرحمن الحاج صالح: مساهمة المجامع اللغوية العربية في ترقية اللغة العربية وتجديد محتواها وتوسيع آفاقها، مجلة المجمع الجزائري للغة العربية، العدد الثامن، ديسمبر 2008، ص.9.

[2] – الربيع ميمون: الحركة العلمية في الجزائر المسلمة وأهميّتها عبر القرون في بناء الحضارة وتقدّمها، مجلة المجمع الجزائري للغة العربية، السنة الأولى، العدد الثاني، ديسمبر، 2005، ص. 29.

[3] – ينظر: لغة التّواصل في الوسط المدرسي، حمزة بوزيان، مجلّة اللّغة العربية و آدابها، المجلّد 09، العدد الأوّل، 2021، منشورات جامعة البليدة2، الجزائر، ص 137.

[4] – ينظر لغة التّواصل في الوسط المدرسي، حمزة بوزيان، مجلّة اللّغة العربية و آدابها، المجلّد 09، العدد الأوّل، 2021، منشورات جامعة البليدة2، الجزائر، ص 135.

[5] – ينظر: عبد الملك مرتاض: الأدب الجزائري القديم: دراسة في الجذور، دار هومة للطباعة والنّشر، الجزائر، ط.2، 2009، ص.27.

[6] – ينظر: سليمان عشراتي: ابن باديس: رؤى وقراءات في تفاصيل المسيرة، دار ألف للنشر، عين الدفلى، الجزائر، د.ط. ص. 109.

[7] – يُنظر: كلاوس هيشن، القضايا الأساسية في علم اللغة، تر. وتع. سعيد حسن بحيري، مؤسسة المختار، القاهرة، مصر، ط.2، 2010م، ص.97.

[8] – أبو عثمان بن جنّي، الخصائص، تحقيق محمّد علي النجّار، المكتبة العلمية، بيروت، ج116/1.